المجتمع والفنون

بقلم الأستاذ س. ق

تصاب الإنسانية فى بعض الفترات بصدمات قوية وأزمات حادة فتشك فى قيمة الحياة وفى عناصر الخير والجمال ، وعندئذ تضيق آفاقها وتصغر آمالها ، وتنكمش فى دائرة ضيقة من الصراع الأرضى المحدود ، وتصبح حياتها أشبه بحياة الوحوش المتعاركة ، لاهدف لها إلا مطالب الطعم والدم ، ووسائل العيش والبقاء .

فى هذه الفترات القاسية يتساءل الناس : ماقيمة الفنون ؟ وحين لايجدونها تلبى ماهم فيه من صراع أرضى على الواقع المحدود ، ولا تشتغل بمايشتغلون به من هموم صغيرة بالقياس إلى أغراض الحياة العليا وأهداف الكون الكبيرة وهموم الانسانيـة العظيمة ، عندئذ يحاولون تسخيرها فى أغراضهم وحصرها فى آفاقهم ، فيطلبون إليها أن تقوم على خدمة هذه الأغراض. وبتعبير آخر أن تكون فى خدمة المجتمع !!!

والمجتمع فى كل آن هو هذا الجيل الذى يعيش فى عصر من العصور ، هو هذه الفترة المحدودة من الزمان وهذه الفئة الخاصة من الناس ، وهذه الظروف والأحوال الراهنة القابلة للتغير والزوال . والفنون مطالبة إذن أن تحصر نفسها فى مطالب هذه الفترة القصيرة وهموم هذه الفئة القليلة وحدود هذه البيئة المحدودة ، وإلا فهى لغو لانفع له ، وهذر لاغناء فيه !

والمحنة التى يجتازها العالم اليوم هى إحدى هذه الفترات القاسية التى تمر بالإنسانية بين الحين والحين ، ثم تجتازها سالمة أو محطمة ، ولكنها فى كلتا الحالتين تنتعش من جديد ، وتحلق من جديد ، وتعود إلى آفاقها العالية وآمالها الواسعة فتطلب إلى الفنون أغراضا أعلى من هذه الأغراض ، وآفاقا أسمى من آفاق الطعام والشراب .

وكصدى لبعض الآراء فى الخارج تتردد الآن فى مصر بعض الأصوات تهتف بالفنون أن تحصر جهدها فى خدمة المجتمع ، فلا ترتاد آفاقا أخرى غير آفاق الصراع بين الطبقات ، ولا تتنسم إلا الغبار الثائر من معركة الخبز ، ولا تعرف الانسانية إلا القطعان المتصارعة حول العيش فى هذا الجيل من الناس وفى تلك الفترة من الزمان .

تقول هذه الفئة المحدودة النفوس الضيقة الأحاسيس : إن الآداب الإنسانية العالية فى جميع اللغات عاديات أولى بها أن توضع فى المتاحف ، ليشتغل الناس جميعا بدراسة المبادئ الاشتراكية وما إليها ، وأن "الابراج العاجية" عبث وخمول لاينبغى لأديب أن يعيش فيه والعالم

يصطرع على الحياة ، وأن دراسة شكسبير والمتنبي ودانتي والمعري وأمثالهم مضيعة للوقت وأولى منها دراسة "كارل ماركس" أو "فرويد" أو حياة "فورد" !

كأن الإنسانية لاتسع هؤلاء وهؤلاء، وكأن الحياة تضيق بفريق منهم دون فريق ، بينما الكون — لو كانت نفوسهم أفسح من هذا — محتاج الى الجميع ،ولكل فريق وظيفة يؤديها الإنسانية لاتغنى عنها وظيفة الفريق الآخر فى كل عصر وجيل .

ولحسن حظ الإنسانية أن هـذه النزعات الموقوتة وتلك الصيحات المحدودة لا تقضى على الآفاق العاليـة الواسعة التى يرتادها كبار الفنانين ، فما يزال فريق منهم فى كل عصر غير عابئ بما يحيط به من أحداث قريبـة ، وغير منغمس فى تياراتها المحـدودة . وهؤلاء هم الخـالدون ، بينما يفنى أدباء المجتمع وفنانو المناسبات ، لأن المجتمع متغير والمناسبة زائلة والفن الإنسانى الرفيع هو وحده الذى يعيش ويخلد بعد انقضاء المناسبات والظروف .

يروى عن "جيتى" شاعر الألمـان الأكبر أن "أكرمان" قد سمع بأنباء ثورة يوليو الفرنسية فقصد أن يزوره ويتحدث إليه فبادره جيتى عند دخوله قائلا " ! آه حسن. ما رأيك فى هذا الشأن العظيم؟ لقد أرسل البركان حممه واشتعلت النار فى كل شىء . وليست هذه بعد محاضرة فى حجرة مسوّرة " فقال " أكرمان " " إنه لحادث مرعب ولكن ماذا يتوقع من وزارة كتلك إلا أن يؤول الأمر إلى نفى الأسرة المالكة ؟" . فعجب جيتى وقال له وكأنه يتهكم "ياصديق العزيز جدا ! يلوح لى أننا لانتفاهم. فما عن هذا تكلمت وإنما أتكلم عن أمر آخر إنما أتكلم عن البحوث التى بدأت بين كوفييه وجفرى سانت هيلر فى جلسة المجمع العامة" يشير إلى بحوث هذين العالمين فى أصل الأنواع (١) .

فهذا أديب عالمى كان يعتصم ببرجه العاجى والثورة الفرنسية تقلب أوضاع الحياة جميعها فلا يكاد يحس بها ولا تساوى أحداثها عنده ماتساويه مناظرة علمية بين عالمين من علماء زمانه. أفكان جيتى أديبا عابثا لا هيا يعنى بالعاديات؟ ،أم كان أديبا عالميا يفنى الاجتماعيون وتارهم ويبقى خالدا على الأيام ؟

ولست أعنى أن أقول : إن كل أديب كبير يجب أن يكون كما كان جيتى ، ولكن أعنى أن الإنسانية فى حاجة إلى هؤلاء كحاجتها إلى الفنانين الآخرين الذين ينغمسون فى أحداث العصر ويتأثرون بمؤثرات البيئـة ويشرعون فنونهم للنضال فيما يناضل فيـه أهـل الجيل من هموم .

والشعور بآلام الانسانية وبحاجات المجتمع فضيلة نفسـية لا شك فيها ، ولكن الفنان الكبير يحس بها على نحو خاص وتبدو فى إنتاجه بلون معين ، فقد لا يكون لسان حال طائفة

(١) نقلا عن كتاب "تذكار جيتى" للاستاذ العقاد

مغبونة ، ولكن الآلام المدوّية من حوله تظهر فى فنه . تظهر فى الألوان القاتمة التى تظلل آثاره وتخلل إنتاجه ، ولو لم يشر بكلمة واحدة إلى هذه المسائل الواقعة . ومن هنا تصبح هذه الآثار عملا إنسانيا عاما يبقى بعد فوات مناسبته .

والانغماس فى صراع المجتمع وتوجيهه وظيفة يجب أن يقوم بها بعض الفنانين ، ولكن لا يجوز أن يطالب بها جميع الفنانين لأنها ناحية واحدة من نواحى الحياة الكثيرة ، وغرض واحد من أغراض الانسانية المتعددة ، فقصر الفنون على أداء وظيفة واحدة تضييق لدائرتها وتحطيم لأجنحتها وحبس لها فى نطاق ضيق لا ترتضيه .

على أن نشأة الفنون وتطورها يتعارضان مع حصرها فى هذه الدائرة الضيقة . إذ الفن تعبير عن الواقع من جهة ، وتنفيس عن الأشواق المكبوتة من جهة أخرى ، وتصوير للآمال المرموقة من جهة ثالثة . فإذا نحن حبسنا الفنون فى دائرة الواقع أمكن للإنسانية أن تستغنى عنها بالعلم والتشريع . ومن حسن الحظ أننا لا نستطيع أن نحبسها فى هذه الدائرة مهما حاولنا ذلك بقوة الدعاية أو قوة السلطان ، لأن الحياة نفسها — وهى أوسع من الواقع المحسوس — تطلق هذه الفنون من عقالها لتعبر عن آفاق الحياة جميعا . إن العلم والصناعة أرجل الإنسانية والفنون أجنحتها . وقد تستطيع الانسانية أن تسير بالأقدام ولكنها لا تحلق بغير جناح .

وقد قرأت لأحدهم مرة كلمة يمثل فيها بموسيقى "ڤاجنر" وكيف اعتمد عليها النازيون فى بث روح الحماسة والقوة فى نفوس الألمان ، وعدها لهذه المزية أعظم موسيقى عالمية ؛ فإذا نصنع إذن بموسيقى بتهوفن وشوبير وشتروس وهى ألوان ثلاثة تختلف فى طبيعتها واتجاهها ولكن تتفق فى أنها لا تؤدى هذه الوظيفة التى تؤديها موسيقى ڤاجنر فى بث روح القوة والحماسة فى النفوس ؟ أنلقى بهذه الموسيقات الإنسانية العالية فى عرض الطريق لأنها لا تؤثر تأثيرا مباشرا فى أداء الأغراض الحربية والقومية ؟ وكم تخسر الإنسانية حين نلقى بسيمفونيات بتهوفن أو مقطوعات شوبير أو رقصات شتروس فى عرض الطريق ؟ إنها تخسر ولا شك أضعاف ما تكسبه من ألف مقال كالذى كتبه صاحبنا فى إحدى المجلات !

* * *

على أن نظرية " الفن للفن " لا تتعارض مع نظرية " الفن للمجتمع " عند النفوس الرحيبة التى تنظر للمسائل نظرة شاملة وتلاحظها من زوايا متعددة لا من زاوية واحدة ضيقة محدودة . فقد كانت الفنون العالية وما زالت تؤدى للإنسانية أنبل الأغراض ، وتسبق كل نهضة علمية أو صناعية بما تفتح من مغاليق النفوس وبما تثير من أشواق الناس إلى الرقى والكمال .

وادراك الجمال — وهو أسمى هدف تتوجه إليه الفنون بالقرابين — ليس مطلبا سهلا ، ولا تستطيع النفوس الانسانية أن ترقى إليه إلا بعد أن تجتاز تجارب شاقة ، فاذا وصلت إلى هذا المستوى الرفيع فلن تصبر على مافى الحياة الاجتماعية من قبح يتعارض مع هذا الجمال.

إن النفس التى تدرك الجمال عن طريق الفنون العالية لن تصبر على الظلم يحيق بطائفة من المجتمع ، ولن تسيغ الذل يحيط بالوطن والانسانية ، ولن تصبر على الحرمان تتجرعه طائفة والترف تنعم به طائفة ، إذ أن الظلم والذل والحرمان والترف مظاهر قبيحة لاتتفق مع إدراك الجمال .

إن الفنان الذى يعلمنى كيف أحب الطبيعة وأعجب إعجابا حقيقيا بما فيها من مفاتن يعلمنى فى الوقت ذاته حب الحرية ، إذ أن الحرية هى أجمل مافى الطبيعة ، وإذ أن الطلاقة هى أثمن ما فى هذا الجمال. وفنه فى هذا خير وأبقى من دعوة ثائرة الى تحطيم قيود الاستعباد. وإن اللحن الموسيقى أو القطعة الشعرية أو الصورة الفنية التى ترفعنى عن العالم الأرضى المحدود الى العالم الانسانى غير المحدود ، لهى التى تعلمنى فى الوقت ذاته ألا أحقد على أحد وألا أوذى أحدا لأنها رفعتنى عن المصارعات الصغيرة بين الأفراد الى الآفاق العالية بين الآباد . وهى فى هذا خير وأبقى من نصيحة خلقية جامدة أو موعظة منبرية جافة .

وحقيقة أن تأثير الفنون عن هذا الطريق تأثير بطىء . ولكنه عميق . وقد تكون الأمم فى بعض الأحيان محتاجة الى الدعوات المباشرة والتأثيرات السريعة ، فليكن . ولتتخصص طائفة من فنانيها لتلبية هذه المطالب السريعة ؟ ولكن هذا لا يعنى أن ينصرف الجميع الى هذه الغاية ، وأن يدعوا الانتاج الفنى الخالص ، وأن يهملوا الجانب الانسانى الخالد ، لينغمسوا فى صراع موقوت ، تموت فنونهم فيه بعد حين من الزمان .

إن احصائية عن الفنانين الخالدين فى تاريخ الانسانية تثبت أنهم جميعا ارتفعوا بفنونهم عن مطالب العصر وحاجات الجيل فكانوا روادا لعصور جديدة ، وسابقين لأجيالهم المحدودة وقد بقيت لهم آثارهم الفنية الخالصة وفنى منها ما كان تلبية لمطالب البيئة ، فلا نذكر لهم الا للتسجيل والتاريخ ، ولا يحسب لهم منه شىء فى سجلات الخلود .

والدعوة التى يدعوها اليوم بعض الكتاب المحدود النفوس الضيق الاحساس الى حصر جهود الأدباء فى الصراع الاجتماعى دعوة خطرة تجب مقاومتها والتنبيه الى خطورتها ولاسيما فى مصر ، حيث تنتشر بين الشبان اليوم بدعة إهمال القديم من الآداب والفنون ، وإهمال الدرس والمطالعة بحجة أن العالم يعيش فى عصر السرعة فليس هناك وقت للدراسة والتحصيل .

فإذا جاء هم كاتب أو أكثر ليقول لهم : لا تقرءوا أدب العاديات، وهو يعنى بالعاديات آثار شكسبير وهاردى وجيتى وشيلر وشيلى وبيرون والمتنبى والمعرى وابن الرومى والبحترى والعقاد وطه حسين وهيكل وتوفيق الحكيم وأمثالهم ، ولكن اقرءوا الآداب الاجتماعية وانغمسوا فى الصراع الاجتماعى وحده ، وتابعوا فقط أخبار الحرب والسياسة ، وأنباء الاختراعات والكشوف ، فإنما يلبى رغبة فى نفوسهم من حيث عدم الصبر على الدرس والمطالعة ، فلا يتهيأون لقديم ولا جديد ، ولا يخرجون بشىء من أعمارهم القصيرة إلا بأشتات من هنا ومن هناك فى عجلة وسرعة لا يستقيم معها درس ولا ينشأ عنها اطلاع .

أقول هذا وأنا أخصص جزءا ضخما من مجهودى الأدبى لهذا الصراع الاجتماعى على صفحات هذه المجلة وسواها ؛ ولكننى أستمد فى هذا الصراع من معينى الأدبى الخالص ، فهذا المعين هو الذى يثير فى نفسى رغبة الإصلاح الاجتماعى من جميع الوجوه ؛ ولو أنى قصرت همومى على الصراع الاجتماعى وحده لنضبت حرارة نفسى بعد حين ونضب معين الكتابة ومعين التوجيه حين لا تمده روافد إنسانية أكبر من المجتمع وأشمل من الجيل .

وهناك دعوة أخرى إلى الشعراء أن يقصروا جهودهم على الشعر القومى وتلبية المناسبات والأحداث التى تحيط بمصر والعالم فى هذه الظروف ، وهى دعوة لا تقل خطرا على القومية والمجتمع من الدعوة السابقة ، ولقد قرأت فى مجلة أسبوعية كلمة كتبتها فى مقدمة استفتاء توجهت به للشعراء "لم لا تنظمون فى الأغراض القومية" جاء فيها :

" لقد كان الشعر القومى فى مصر إلى عهد غير بعيد يحتل مكان الصدارة بين مختلف الفنون العليا والأدب الرفيع ، فكانت القصيدة ينظمها " شوقى " أو " حافظ " أعظم أثرا فى نفوس الجماهير من عشرات الخطب والمقالات. وما يزال الناس يذكرون لشوقى قصيدته الخالدة التى يقول فيها :

إلام الخلف بينكم إلاما ... وهذى الصحة الكبرى علاما ؟
وفيم يكيد بعضكم لبعض ... وتبدون العداوة والخصاما ؟
ترامينم ، فقال الناس قوم ... إلى الخذلان أمرهمو ترامى
وكانت مصر أول ما أصبتم ... فلم تحص الجراح ولا الكلاما

هل فى شعرائنا من فكر فى أن ينظم قصيدة بهذا المعنى يوجه الكلام فيها إلى زعمائنا وأقطابنا الذين أصبحوا يقتتلون على كراسى الحكم ، تاركين كل شىء عداها فى الوقت الذى نرى البلاد على أبواب محنة عالمية لا يعرف إلا الله متى تنتهى وتزول ؟ !

أين فيهم من نظم لنا قصيدة ، نصف لنا فيها غارة جوية ونرثى ضحاياها ، والغارات — بحمد الله الذى لا يحمد على المكروه سواه — تتوالى هنا وهناك ، فى الاسكندرية ،

وفى الاسماعيلية ، وفى بور سعيد ، وفى القاهرة ، وأخيرا فى الفيوم ، فتودى بحياة العشرات من الأبرياء وتقضى على مئات من الأسر بالتشرد فى العراء ؟

أين فيهم من نظم لنا قصيدة " يتغزل " بها فى " رغيف " أو فى "جلابية" وهو يرى الملايين من مواطنيه وقد نكبهم غلاء الأسعار وجشع التجار بما لاطاقة لهم به من عرى على عرى ، وجوع على جوع ، فعز عليهم الغذاء بعد أن عز الكساء ! "

وأحب أن أقول لأصحاب هذه الدعوة : إن مثل هذا الشعر هو أفشل الشعر فى تأدية الأغراض القومية ، وأن الذين يقولونه فى هـذه الأيام بحمد الله كثيرون ، ولكنهم ليسوا من شعراء الطليعة ، ولا من الشعراء الذين يحترمون فنهم ، أو يعرفون وظيفة الفنون .

ولقد كان الشعر يؤدى وظيفة الخطابة والنصح والإرشاد المباشرين يوم كان الشاعر ممثلا للقبيلة فى مرحلة من مراحل التطور الإنسانى ، فلما تقدم الإنسان ، ونشأ التخصص صار الشعر عملا فرديا مطلوبا منه أن يعبر عن نفس فرد لا عن حياة قبيلة . وهذا الفرد الممتاز يعرض لنا الكون والحوادث من خلال نفسه الخاصة ، وليس مطالبا قط أن يكون دفتر تسجيل للحوادث ولا خطيبا واعظا يهتف بالدعوات القومية والحزبية والخلقية . وحسبه أن يوسع آفاق الحياة فى نظر الناس ويعلمهم مافى الدنيا من الخير والجمال ، فيثوروا هم على مافيها من القبح والاختلال .

* * *

بقيت الأغانى والقصص والروايات ، ويرى بعضهم أن توجه توجيها مباشرا لمعالجة أمراض المجتمع ، ولست أعارض فى أن يتولى بعضها هذه المهمة المحدودة ، ولكن ينبغى أن يبقى جانب منها حرا لأداء رسالة الفن الخالصة .

ولكن ينبغى هنا أن نقول : إن معظم ما يذاع من الأغانى وما يعرض من الروايات ويقرأ من القصص مؤذ للأخلاق وللفطرة الانسانية ، ويجب أن تقوم عليه رقابة بصيرة لا يكون المسيّر لها فى الرفض والترخيص هو التوجيه الخلقى والاجتماعى ، بل يكون هو تنقية هذه الأغانى والقصص والروايات مما يؤذى الذوق الانسانى فى لفظه أو أدائه ، ومعظم مايذاع يؤذى هذا الذوق الإنسانى بغض النظر عن المجتمع الحاضر وعن الأخلاق المتعارفة .

وأقرب ما يفسر هـذا الإجمال أن عرض عاطفة الحب وهى عاطفة إنسانيـة رفيعة فى تلك الصورة الوضيعة التافهة التى تبدو فى الأغانى والأفلام المصرية والقصص الرخيصة الموضوعة هو تشويه لشعور إنسانى كريم تنبغى صيانته ورفع مستواه .

وهكذا يجب أن ترتفع النظرة إلى العواطف الانسانية ، ولو لم نحصر نفوسنا فى المجتمع الحاضر والبيئة المحدودة والتوجيه المباشر الذى نقرر أنه ليس من واجب الفنون .

س . ق